



بسم الله الرحمن الرحيم

بليلة الصفير

أنشد أحد الطلاب أرجوزة منسوبة إلى الراوية والعالم اللغويّ الشهير الأصمعي . وكانت أبياتها
تقدم الدليل تلو الدليل على بطلان العلاقة بين أديب كالأصمعي وكلام ركيك مليء بالإسفاف والسقوط
الفني واللغويّ كذلك الكلام . وهذا ما دعاني إلى أن أستأذن المنظمين الكرام لأبيّن لأبنائنا الطلاب أن
ليس كل ما يقال أو يكتب صحيحاً ، وأن نسبة هذا الكلام للأصمعي لا تصح قطعاً ، مؤكداً أنه كلام
ركيك مسفّ مليء بالأخطاء اللغوية . ولأني لم أسمعها إلا من هذا الطالب المنشد في مناسبتين، لم أكن
أعلم أن لها هذا الرواج لدى العامة في المنتديات غير المتخصصة، وأكاد أجزم أن السبب الأهم لذلك
الرواج هو أن منشداً معروفاً صدح بها . من هنا أعيد التوجيه المخلص لأحبابنا الطلاب إلى أن يحتقوا
بالأدب الرفيع ذي القيم الفنيّة الراقية وهو غزير ممتدّ زماناً ومكاناً ، وفي المعهد وفي الجامعة أساتذة
مهتمون بالأدب والنقد يسعدهم أن تشاركوهم ويشاركوكم في العناية والرقّي بفنّ القول.

ثم اعلّموا أيها الأعزاء أن تلك الأرجوزة المزعومة قد استحققت بكل جدارة قصة مزعومة
متهافئة مثلها تقول القصة :

إن أبا جعفر المنصور كان يحفظ الشعر من مرة واحدة ، وله مملوك يحفظه من مرتين ، وجارية
تحفظه من ثلاث مرات ، فكان إذا جاء شاعر بقصيدة يمدحه بها ، حفظها ولو كانت ألف بيت ! ثم
يقول له : إن القصيدة ليست لك ، وهاك اسمها مني ، ثم ينشدها كاملة ، ثم يردف : وهذا المملوك
يحفظها أيضاً وقد سمعها المملوك مرتين ، مرة من الشاعر ومرة من الخليفة – فينشدها ، ثم يقول
الخليفة : وهذه الجارية تحفظها كذلك وقد سمعتها الجارية ثلاث مرات فتنشدها ، فيخرج الشاعر
مكذباً متهماً .

قال الراوي : وكان الأصمعي من جلسائه وندمائيه ، فعرف حيلة الخليفة ، فعمد إلى نظم أبيات صعبة ،
ثم دخل على الخليفة وقد غير هيئته في صفة أعرابي غريب ملتئم لم يبين منه سوى عينيه ! فأنشده
أرجوزة منها:

صوت صفير البلبل هيج قلب الثمل
الماء والزهر معاً مع زهر لحظ المقل
وأنت يا سيددلي وسيددي وموللي
وقال : لا لا لللا وقد غدا مهرولي
وفتية سقونني قهيوه كالعسل
شممتها في أنفي أزكى من القرنفل
والعود دن دن دنلي والطبل طب طب طبلي
والكل كع كع كعلي خلفي ومن حويللي

تقول القصّة إن الخليفة والمملوك والجارية لم يحفظوها، فقال الخليفة للأصمعي : يا أبا العرب ، هات ما كتبتها فيه نعطك وزنه ذهباً ، فأخرج قطعة رخام وقال : إني لم أجد ورقاً أكتبها فيه ، فكتبتها على هذا العمود من الرخام ، فلم يسع الخليفة إلا أن أعطاه وزنه ذهباً ، ففد ما في خزانته!

إن القصّة والمنظومة تحملان أدلة الوضع اللغوية والفنية والعقلية والتاريخية، وليسنا محتاجين إلى مزيد من البحث والتروي ، لكني مع هذا أنقل بعضاً مما ورد في مقال للدكتور الشاعر عبدالله بن سليم الرشيد (نشر في المجلة العربية - عدد (٢٥٦) جمادى الآخرة ١٤١٩ ص ٩٤) يقول فيه: (إن هذا النظم الركيك أبعد ما يكون عن الأصمعي وجلالة قدره ، وقد نسب له شيء كثير ، لكثرة رواياته ، وقد يحتاج بعض ما نُسب إليه إلى تأنُّ في الكشف والتمحيص قبل أن يُقضى برده ، غير أن هذه القصّة بخاصة تحمل بنفسها تُهم وضعها ، وكذلك النظم ، وليس هذا بخاف عن اللبيب بل عمّن يملك أدنى مقوّمات التفكير الحرّ .

ولم أعرض لها إلاّ لأنني رأيت جمهرة من شدة الأدب يحتفون بالنظم الوارد فيها ، ويتماهرون في حفظه ، وهو مفسدة للذوق ، مسلبة للفصاحة ، مأداة للأسماع . وبعد : فإنه يصدق على هذه القصّة قول عمر فرّوخ رحمه الله: (إن مثل هذا الهذر السقيم لا يجوز أن يُروى ، ومن العقوق للأدب وللعلم وللفضيلة أن تولّف الكتب لتذكر أمثال هذا النظم) .

محمد بن عبد الله الغانم

معهد اللغة العربية

مقالة منشورة في صحيفة رسالة الجامعة بتاريخ ٧/رجب/١٤٣١ الموافق ١٩/يونيو/٢٠١٠